المهاجرون السوافة بمناجم قفصة بتونس(1885م-1945م)

أ/ حسين الأسود.

أستاذ معيد بجامعة الشهيد حمة لخضر- الوادي

الملخص:

تأتي هذه الورقة البحثية، كمحاولة لقراءة وضعية المهاجرين"السوافة" بمناجم قفصة التونسية، خاصة أن هاته الأخيرة شهدت نهضة منذ اكتشاف الفوسفات بجال قفصة وتمغزة من طرف البعثات العلمية الاستكشافية الفرنسية يوم 18أفريل 1885م.

Summary: -

in this design, we try to know the souafa emigrants situation , in gafsa's mines in Tunisia, especially that, a renaissance had appeared in this region gafsa, after discovering the phosphate in its mountains and tamogza by the French scientific missions since April 18, 1885.

تـمهيد:

جبلت المجتمعات البشرية منذ القدم على الهجرة والتنقل من مكان إلى آخر، ومن قارة إلى أخرى، وتطورت حركات الهجرة في العصور الحديثة، فتنوعت أصنافها، وتعددت أشكالها وأسبابها، نتيجة لعوامل سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وثقافية وغيرها، وإذا أمعنا النظر في ظاهرة الهجرة السوفية نحو القرى المنجمية بتونس، نجدها لم تكن غاية في حد ذاتها، لكنها كانت الوسيلة الوحيدة التي التجئوا إليها نتيجة الأوضاع السيئة التي آلت إليها البلاد، وظروف القهر

التي سلكها المستعمر الفرنسي منذ أن وطأت أقدامه الجزائر، والتي أصبحت في ضوئها الحياة والتعايش مع قوات الاحتلال الفرنسي ضربا من المستحيل، وهو ما حدا بالعديد من الأسر والعائلات إلى الهجرة.

تعد تونس الوجهة الأولى لمهاجري منطقة وادي سوف[1]، وذلك يرجع لعدة عوامل أبرزها القرب الجغرافي والمحاذاة الحدودية لمنطقة الجريد بالجنوب التونسي، وكذا وجود علاقات تاريخية متينة تمثل امتداداً حضارياً سابقاً للاحتلال الفرنسي؛ هذا الأخير وباستقراره في المنطقة سنة 1882م[2]، أثّر بدرجة كبيرة في الحياة العامة للمجتمع السوفي ولاسيما في الجانب الاقتصادي.

وبالموازاة مع هذه الأحداث عرفت البلاد التونسية بعد فرض الحماية الفرنسية عليها سنة 1881م[3]، اكتشاف الفوسفات بنواحي قفصة والى المناطق الشمالية منها من طرف الطبيب فليب توماس"Thomas Philippe"[4]، على مساحة قدرت بحوالي 80كلم^2 ممتدة على أراضي قبائل أولاد سلامة وقبائل أولاد بويحي وقبائل سيدي عبيد وغيرهم، حيث عملت سلطات الاحتلال على تسوية الوضعية القانونية للأراضي المستهدفة، واعتبارها لأراضي العروش داخلة ضمن أراضي الموات(الأرض البور)، أو عدم توفر رسوم الملكية لهذه الأراضي من طرف سكان القبائل الذين يطالبون بحق الملكية، وهو ما دفع بسلطات الاحتلال الإدعاء بحق الدولة على الأراضي المنجمية، والشروع في مصادرتها من طرف المجالس العقارية المختلطة تطبيقا للأمر الصادر في 14 جانفي 1901م[5]، وانتزاع الأراضي المطلوبة من أصحابها الشرعيين الأمر الذي فسح المجال أمام الشركات الاستعمارية.

وبتوفر الظروف القانونية انطلقت تلك الشركات في استغلال ثروات المنطقة، حيث طُرِحت عليها مسألة إيجاد اليد العاملة التي لم تكن الجهة قادرة

على توفيرها لنقص عدد السكان، ولعدم توفر المؤهلات المهنية لديهم لاقتحام العمل المنجمي فعملت على تكليف العديد من الأعوان لاستقطاب العمال وانتدابهم من الأماكن القريبة كقابس، وتوزر، وتبسة، ووادي سوف وغير ذلك، حيث استفاد هؤلاء الأعوان من دعم السلطات الإدارية والعسكرية خاصة في التراب الجزائري(وادي سوف)[6].

لقد انطلقت أول تيارات الهجرة من منطقة وادي سوف نحو المراكز المنجمية مع بداية استغلال منجم الرديف بالجنوب التونسي، ومعها بدأت تتشكل أول جالية سوفية بتلك الجهة، وبذلك تعد المناطق المنجمية أحد أهم الإتجاهات الأساسية في هجرة سكان وادي سوف نحو البلاد التونسية، فهي وعلى مستوى جانبين كانت منطقة تحويل أولية للهجرة نحو العاصمة تونس كما أنها نواة أساسية لاستقبال الهجرات السوفية اللاحقة.

1- الشركات المنجمية ورحلة البحث عن اليد العاملة

في 12ماي 1897م تأسست شركة صفاقس-قفصة من طرف العديد من المساهمين الفرنسيين، ونتيجة لتسهيلات كبيرة من طرف السلطات الاستعمارية القائمة أمضت على اتفاق بموجبه يحق لها استغلال الأراضي الممتدة ما بين مدينة قفصة والحدود الجزائرية لمدة ستين(60)سنة دون ضمان ولا تعويض، على أن تعود هذه الأراضي لملكية الدولة بعد انتهاء مدة الاتفاق، وتمتد هذه الأراضي من الجنوب الغربي لقفصة إلى الحدود الجزائرية غربا، وهي تضم جبال الزيتون، وزمرة، والثالجة، والمتلوي، وجبال شمال تمغزة، والمناطق المحاذية لها[7]، وهو ما يعني أن الشركة قد احتكرت جل مناجم قفصة. وسيتدعم احتكارها للصناعة المنجمية باستغلالها لكل من منجم الرديف سنة 1909، ومنجم أم العرائس سنة 1919م بعد أن شرعت في استغلاله منجم المتلوي سنة 1897م، هذا التوسع في النشاط فرض على الشركة مد خط السكة الحديدية لربط المتلوي

بالرديف وأم العرائس بميناء سوسة عبر هنشير السواطير.

وبعد أن تم الاستيلاء على جميع الأراضي ومنح تراخيص استغلال المناجم، وكان آخرها استغلال منجم المضيلة الذي رُخِص استغلاله سنة 1913م في إطار تطبيق القانون المؤرخ في 01 ديسمبر 1898م والذي يحدد البحث عن الفوسفات واستغلاله بعد الحرب العالمية الأولى، لتنطلق به الأشغال سنة 1920م وبدأ استغلاله فعليا سنة 1922م[8].

واجهت الشركات المنجمية كما ذكرنا سابقا مشكل نقص اليد العاملة، خاصة بعد أن تشبث أصحاب الأراضي وسكان القبائل بالمناطق المجاورة بأنشطتهم الفلاحية والرعي خوفا من استيلاء سلطات الاحتلال على الأراضي المتبقية في حوزتهم، الأمر الذي جعل تلك الشركات تبحث عن اليد العاملة من خارج البلاد. وقد استخدمت لهذا الغرض العديد من الأعوان لانتدابهم من قابس، وتوزر، وصفاقس، وتبسة، ووادي سوف،... وكثيرا ما كان يتم إغراء السكان وحثهم على العمل في المناجم سواء من طرف سلطات الاحتلال أو من طرف السلطات المحلية من قياد ومشايخ الزوايا، واستمر هذا الأسلوب في استقطاب اليد العاملة إلى غاية بداية عقد الثلاثينيات حين وقعت الأزمة الاقتصادية وما نتج عنها من آثار سلبية عملت على انخفاض تصدير الفوسفات، وانعكاس ذلك على الأيدي العاملة بالمناجم.

وقد شكل العمال الجزائريون وخاصة القبائليون النواة الأولى لليد العاملة المستقطبة من شركة صفاقس–قفصة منذ بداية القرن وحتى سنة 1914م، ويعود ذلك الحضور الكثيف بمناجم الشركة إلى الخبرة التي اكتسبوها في مناجم الحديد الجزائرية التابعة لشركة مقطع الحديد، واستمر ذلك التدفق على مناجم الرديف والمتلوي بصفة خاصة حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى، حين انتقل قسم منهم إلى فرنسا للعمل في المصانع الحربية ومكثوا هناك بعد نهاية الحرب، وبتراجع

العنصر القبائلي تم التوجه نحو منطقة وادي سوف التي اعتبرت خزان للتعبئة[9].

2- الأصول القبلية والأرقام الإحصائية للمهاجرين بالمراكز المنجمية

يتوزع مهاجرو سكان وادي سوف عموما بين قبيلتين كبيرين هما"عدوان-وطرود"[10]، هذه الأخيرة شكلت خزان بشري غذى هجرة السوافة إلى القرى المنجمية، فطرود وهم عرب يرجع نسبهم إلى طرود بن نصر بن فهد بن عمر بن قيس عيلان نزلوا بمنطقة وادي سوف في حدود القرن 14م، وتندرج تحت هذه القبيلة أكبر فرعين للجالية السوفية المتواجدة بالقرى المنجمية وهما"المصاعبة-والأعشاش"، بالإضافة إلى بقية العروش بنسبة أقل، ويمكن أن نفسر هذا الانحصار لأصول المهاجرين في هاتين القبيلتين ضمن مجموعة من العوامل أبرزها:

-الثقل السكاني الذي ميز كل من عرشي الأعشاش والمصاعبة مقارنة بباقي العروش خاصة إذا ما قورنت بإجمالي عدد سكان وادي سوف الذي بلغ 77476 نسمة سنة1938م، في حين وصل تعداد عرش المصاعبة إلى 21795نسمة وعرش الأعشاش 26331 نسمة[11]، أي بنسبة تفوق 60% من تعداد السكان.

-يعيش أغلب هؤلاء المهاجرين في مناطق الوادي الحضرية كحي تكسبت بعاصمة الإقليم، وعميش "البياضة-والرباح"، ومنطقة المقرن[12]، هذه المراكز عرفت تواجد كبير للإدارة الفرنسية، مما جعلهم الأكثر عرضة للضرائب والتضييق مقارنة بغيرهم من الحواضر.

-ساهمت العلاقات الدينية والثقافية التي وطدتها الطرق الصوفية"القادرية-التيجانية-الرحمانية(العزوزية)" في تحريك هذه الهجرة نحو الجنوب التونسي حيث الزوايا مسيطرة على أغلبية الجريد التونسي بالإضافة إلى مناطق الأحواض المنجية،

في حين لا يمكن إغفال دور الحركة التجارة التي ميزت المنطقة فقد كانت حرة لا تخضع إلى رقابة حتى صدور القرار المؤرخ في7 فيفري 1898م[13]، الذي يهدف إلى التحكم في حركة الجزائريين عبر الحدود التونسية، إلا أن ذلك لم يمنع سكان وادي سوف من الهجرة نحو تونس.

بدأت الجالية السوفية الأولى في التشكل مع انطلاق استغلال منجم الرديف سنة 1909م، حيث بلغ تعداد العمالة السوفية في مناجم"الرديف، والمتلوي، وأم العرايس، والمضيلة" سنة 1914م حوالي 400 مهاجر، ليرتفع العدد سنة 1922 ويصل إلى 1204 مهاجر، وظلت اليد العاملة في تزايد إلى أن وصلت 2083 مهاجر سنة 1924م، باستثناء عمال منجم المضيلة في هذه السنة، وفي سنة 1937م انخفض عدد العمال من وادي سوف إلى 856 مهاجر، ويمكن أن نفسر ذلك بتراجع مبيعات منتوجات الشركة منذ سنة 1927م (ملامح الأزمة الاقتصادية) وخاصة سنة 1930م، حيث عانت الشركة من تقلص أسواقها، واستقر تعداد العمال من وادي سوف في 837 مهاجر سنة 1948م[14].

وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية مثل العمال السوافة في المراكز الثلاث التابعة لشركة صفاقس–قفصة أكثر من ربع(1/4)مجموع العمال، والجدول التالي يعطينا مقارنة بين تعداد العمال السوافة وبقية العمالة من مختلف الجنسيات:

***جدول يوضح تعداد العمال السوافة بالمقارنة مع بقية الجاليات بمناجم قفصة[15].**

	1924	1937	1948
الأوربـــــيون	599	297	239
الطرابلـــــسية	749	981	-

المـــــــغاربة	256	213	353
الســـــــوافة	2083	856	837

من خلال هذه الأرقام يتضح لنا أن العمال السوافة بمناجم قفصة هي المجموعة الأكثر عددا بالنسبة لبقية الجنسيات الأخرى، وهي كذلك الأكثر تماسكا وانسجاما لا تشقهم الصراعات الخفية بين البدو والحضر فغالبيتهم أصيلو واحات وادي سوف، وهو ما جعلهم أكثر تضامنا وتشبثا بخصوصيتهم الثقافية.

3- ظروف العمل بمناجم الفوسفات

يعد الانخراط في العمل المنجمي بمثابة مغامرة حقيقية بالنسبة للمجموعات العمالية الجديدة والتي تتركب في الأساس من عناصر لا ترتبط بالمحيط الجديد إلا تحت ضغط الحاجة المباشرة أو غير المباشرة "القهر السياسي، المجاعات، الجفاف،.." وكذا الحرمان والتشريد الذي واجههم في بلادهم قبل الهجرة، وبعد توافدهم إلى تونس لم يبق أمامهم سوى العمل فيما توفر لديهم بقطاع المناجم وغيرها، حيث سعت الشركات الاحتكارية إلى توطين الشغيلة السوفية بصفة نهائية في هذه المناجم لكفاءتها في بعض الأعمال وانخفاض قيمتها، حيث يلفت الانتباه توجيهها نحو الأعمال الشاقة مثل: تجفيف الفوسفات خارج المناجم...[16].

إن العمل في هذه المناجم لم يكن بالأمر السهل بل كان محفوفا بالمخاطر فقد دفع الكثير من العمال الثمن غاليا، حيث كانوا يموتون ببطء نتيجة لما تعرضوا له من غبار الفوسفات الذي يدخل أعينهم فيصيبها بالعمى، ويدخل رئتيهم فيسدها عن التنفس، إنها ضريبة تلك الظروف الصعبة والعمل الشاق الذي كابده الأجداد بمناجم الفوسفات التي لا تتوفر على أدنى حد من الشروط الصحية المقبولة إنسانيا على الأقل، فلا وجود لملابس واقية ولا كمامات حامية

من الغبار، ولا أغطية للرأس ولا حتى تغذية سليمة[17]، فمنهم من مات تحت انهار أسقف هذه المناجم ومنهم من شوه، وكثيرا ما كانت تلك الشركات لا تصرح بعدد حوادث العمال، وساعدها في ذلك البعد الجغرافي لمناطق المناجم عن الحواضر، وانعدام المراقبة الصارمة، وجهل الطبقة الشغيلة بحقوقها المهنية وخضوعها للأمر الواقع نتيجة لظروفها المزرية والحاجة إلى العمل، كان غاية الشركات الرأسمالي هو تحقيق الأرباح دون إعطاء أي أهمية لتكوين العاملين بالمناجم أو توفير لهم الوقاية من الحوادث المهنية.

وما ينبغي الإشارة إليه أن المهاجرين السوافة غالبا ما يبقون بشكل عام لستة أشهر ويعودون لبلادهم في الأشهر المتبقية من السنة لجني محصول التمور الذي ينضج في فصل الخريف أو لتفقد الأهل، وأحيانا تطول الإقامة إلى عامين أو ثلاثة لكن بشكل عام فالرجوع لم يكن دائما قاعدة[18]، وساهم عامل قرب المسافة بين وادي سوف والأحواض المنجمية ونمط الحياة التقليدي المرتبط بالأرض في مغادرة الكثير من العمال للمناجم لغرض الاشتغال في الفلاحة، كما كان لظروف العمل القاسية بتلك المناجم دور كبير في الانقطاع عن العمل لفترات مؤقتة أو دائمة وخاصة في فترات الحرارة المرتفعة والبرودة القاسية وفي شهر رمضان، هذا الانقطاع عن العمل سيكون له أثر سلبي على ترتيب العمال الوافدين من منطقة وادي سوف في سلم المهن والأجور حيث كانوا مرتبين في أسفل المهن المنجمية كعمال معاونين.

لقد ارتبط تحديد قيمة الأجور بأصناف المهن وبالمجموعات العمالية المصنفة أساسا إلى عمال أوربيين يتقاضون مرتبات عالية وعمال مسلمين يتلقون مرتبات منخفضة، فالفرق بين الصنفين في الأجر كان يتراوح ما بين 30الى40%[19]، وهو بذلك يخضع إلى أهداف استعمارية للسيطرة على الثروات المنجمية بالبلاد التونسية، وأساسا استراتيجيا في توزيع الأصناف المهنية، وتحديد

الأجور، فالعنصر الأوربي يستحوذ على المناصب العليا، والمهن المتخصصة في الصناعات المنجمية كإطارات التسيير، والكهربائيين والعمال المكلفين بتفجير المتفرقعات...وأما المناصب السفلى فتسند لبقية العناصر الأخرى، وهذا لا يعني أن العمال المسلمين لا يتوفرون على المؤهلات المهنية، وإنما يعود السبب في النظرة العرقية والعنصرية الاستعمارية التي فرضتها شركات الاحتلال المنجمية كحد فاصل بين المجموعات الأوربية كطبقة عليا متميزة، والعمال المسلمين كطبقة مهنية سفلى محرومة من حقوقها المهنية.

4- الحياة في القرى المنجمية

المتأمل في التوزيع السكاني والتطور العمراني في القرى المنجمية يلاحظ المعانات الكبيرة للمجموعات العمالية في أوقات العمل، وظروف الحياة الصعبة خارجها، بخلاف الأحياء التي استوطنها العمال الأوربيون المعروفة بـ"الفيلاج" Village والتي تم بنائها من طرف الشركات المنجمية بتخطيط هندسي على شكل القرى الأوربية المتوفرة على كل التجهيزات الحضرية، والمرافق الضرورية بغرض الاستقرار والترغيب في الهجرة الأوربية نحو المراكز المنجمية، فصنفت المساكن الأوربية المقامة حسب الرتب المهنية، فهناك مساكن خاصة بالإطارات العليا، وأخرى بالإطارات الوسطى، ومساكن للعمال المتخصصين، وحول الحي السكني للأوربيين أقيمت الأحياء العربية كمجموعات خاصة بالجزائريين والمغاربة والليبيين، وأصحاب الأراضي من القبائل التونسية المبعثرة، وبدأ ظهور هذه الأحياء العربية منذ بداية الاستغلال المنجمي، وبرزت بشكل واضح فعرفت بحي المغاربة وحي الطرابلسية وحي السوافة...

انتشرت الأحياء السوفية بمختلف المواقع المنجمية بالبلاد التونسية، واحتلوا مراتب متقدمة ضمن بقية المجمومات الأخرى ومن أهم هذه المراكز التي استقروا بها نذكر:

– **الرديف**: تقع بالجنوب الغربي لتونس على الحدود الجزائرية، يتكون سكانها من قبيلتين كبيرتين هما أولاد سيدي عبيد وأولاد بويحي، يمتهن غالبيتهم تربية الماشية وزراعة الحبوب، بدأت البنية الحضارية لمنطقة الرديف في التشكل مع الانطلاق في استغلال مناجم الفوسفات سنة 1909م، ومعها ظهرت أول نواة للتواجد الفعلي للسوافة بالقرى المنجمية سنة 1915م، بمنطقة تعرف بـ"حي السوافة"، وقد اكتمل تشكيل هذا الحي الذي يقع على ضفتي وادي الدخلة سنة 1925م، ويتكون حي السوافة بالرديف من تجمعين "نزلتين"، النزلة الأولى، ونزلة الفلاق التي سكنها في بداية الأمر العمال العزاب ثم التحقت بهم عائلاتهم، وقد عرفت منطقة الرديف هجرات سوفية كبيرة خاصة بعد الحرب العالمية الثانية[20].

– **أم العرائس**: تقع في نفس المجال الجغرافي والمناخي لمنطقة الرديف، يحدها شمالا ولاية القصرين وجنوبا منطقتي المتلوي والرديف، وشرقا قفصة الجنوبية والمتلوي، أما غربا الحدود الشرقية للجزائر. بدأت ملامح مدينة أم العرايس في التشكل مع استقرار اليد العاملة الأجنبية التي وطنتها شركة الفوسفات "صفاقس–قفصة"، ومن أول الأحياء التي سكنت نجد"نزلة السوافة"التي تشكلت سنة 1928م[21].

– **المضيلة**: التحقت هذه المنطقة بالقرى المنجمية منذ صدور رخصة استغلال منجم الفوسفات سنة 1913، والذي دخل حيز الاستغلال فعليا منذ سنة 1922م، والجالية السوفية في لمضيلة أقلية إذا ما قورنوا بباقي الجاليات العربية الموجودة فيها، وقد أقاموا مساكنهم بحي الطرابلسية في بادئ الأمر، ثم أصبحت لهم دشرة تعرف"بدشرة السوافة"[22].

ساهمت الحالة المادية للمهاجرين السوافة في تحديد نمط حياتهم بالقرى المنجمية، وكذا نوعية المساكن التي استوطنوها، فقد امتلكوا في بداية استقرارهم

بيوتا لا تختلف كثيرا عن "الجحور"، أما المواد التي شيدت بها إما بالجبس والحجارة أو الطين والأسقف من بقايا الأخشاب التي تم الانتهاء من استغلالها في مناجم الفوسفات، حتى أن هناك عمال كانوا يحفرون مساكنهم تحت الأرض إلى غاية 1928م، وهذه الكهوف محفورة على جانب جبل الخنفوس في الرديف كسكنات بدائية[23].

بينما استوطن الكثير من العمال السوافة الآخرين مع عائلاتهم في أكواخ"gourbi" التي خصصتها الشركات الفوسفاتية لإيواء عمالها وأسرهم، ولقد كان الطابع السكني متبايناً بصفة واضحة بين الأحياء الأوربية بـ"فيلاتها" والأحياء الأهلية بـ"أكواخها" أو منازلها الضيقة التي يرثى لحالها من ناحية البناء وانعدام الأبواب والنوافذ فضلا عن كونها لا تحتوي على مطبخ ولا بيت الراحة.

فعدم تجهيز هذه الأحياء بقنوات التطهير تسبب في انتشار الفضلات والمياه الآسنة في الأزقة المولدة لشتى الأمراض "كالتيفوس" الذي فتك بأعداد هائلة من العمال، إذ لا يمكن تصور أكواخ موبوءة وأقذر من تلك التي يسكنها عمال المناجم حسب قول روجي بليسار"Roger Plissard" متفقد المكتب الدولي للشغل، الذي كلف بإعداد دراسة عن أوضاع المناجم سنة1937م، حيث يخلص إلى القول:"أن مساكن الأهالي في مجملها شيء مؤلم مشاهدته"[24].

وعلاوة على ذلك لا يتوفر التنوير الكهربائي والماء بالأحياء والمنازل، ويقتصر على الحي الأوربي فقط، وقد كانت الإنارة في منازل السوافة هي مصباح"لامبة" الكربون، أما بالنسبة للماء فقد كان بحي السوافة بالرديف حنفية واحدة أواخر الأربعينيات، وكثيرا ما كان الأهالي يضطرون للذهاب للاستسقاء من الحنفية الموجودة بحي المراركة أو حي الجريدية، ويكون ذلك ما بين منتصف النهار والواحدة زوالا لتجنب الازدحام[25].

أما عن التزود بالسلع فيتم عن طريق التجار الأهليين أو المقتصديات التابعة للشركات المنجمية التي تستخلص ضمانات من أجور العمال قبل الشروع في عملية التزويد تتراوح بين 200و800فرنك/عامل، مقابل فائدة بنسبة 05%، ففي فترة الحرب العالمية الثانية(1939-1945م)، اضطر معظم السوافة الاعتماد على هذه المقتصديات التي كانت تزودهم بمواد من بينها "الفرينة".

في ظل هذه الأوضاع المزرية عانى السوافة بشدة في الجانب الصحي وكانت أكثر الأمراض السائدة؛ الحساسية كالربو والرمد بسبب غبار الفوسفات الذي كان ينخر أجسادهم، كما ساهم التلوث بالأحياء في انتشار الأمراض المعدية والقاتلة كالتيفوس وحمى المستنقعات والحصبة والسعال الديكي والإسهال...، وهو ما دفع بشركات الفوسفات إلى توفير مستشفيات بهدف معالجة الأوربيين بالدرجة الأولى، وكذا التخفيف من مخاطر فقدانها لليد العاملة.

ولا تختلف سياسة الشركات المنجمية في ميدان التعليم عن تلك المتوخاة في الميادين الأخرى، فالاختلافات هامة بين الأطفال الأوربيين وغيرهم الذين منهم أبناء الجالية السوفية، ففي الوقت الذي تمكن فيه شركة صفاقس-قفصة الأطفال الأوربيين من مزاولة تعليمهم بمدارس خاصة، ومنحة بقيمة 100فرنك لأعوانها الأوربيين عن كل طفل لا يتجاوز عمره 20سنة، لمواصلة تعليمه الثانوي أو المهني، تغلق في وجه أبناء العمال السوافة وبقية الجاليات العربية أبواب التعليم العصري[26].

5- مساهمة العمال السوافة في الحراك النقابي

استحوذت الشركات الاستعمارية على مقدرات تونس المنجمية وخيراتها، وخلقت بذلك وضعا مأساويا تمثل في الفوارق بين ما ينعم به العمال الفرنسيون والأوربيون من جهة وبين ما يعانيه العمال العرب المسلمون من جهة ثانية، ومع

تنامي هذه الفوارق ازدادت الكراهية والحقد للفرنسيين والأوربيين عموما، فأصبح العمال يتحينون الفرص للتعبير عن غضبهم وسخطهم تجاه تلك الأوضاع المزرية التي يعيشونها.

ساهمت هذه الأوضاع في إيجاد تحركات عمالية انبثق عنها حركة نقابية منظمة عملت على توحيد صفوف جميع العمال للتصدي للتجاوزات والامتيازات لتلك الشركات الاستعمارية، ورغم البدايات المحتشمة لهذه التحركات مع مطلع القرن العشرين واتصافها بالانعزالية من ناحية وقصر مدة استمرارها من ناحية أخرى، إلا أنها ستشهد محاولات تنظيم جدية خلال فترة العشرينيات خاصة بعد زيارة محمد علي الحامي المؤسس والمنظر لجامعة عموم العملة التونسية لكل من قفصة والمتلوي في ديسمبر 1924م[27].

وكبقية الفئات المتضررة من الممارسات التمييزية لتلك الشركات، ساهم العمال من الجالية السوفية بمناجم قفصة مع إخوانهم المهمشين في تفعيل العمل النقابي، فمنذ ظهور بوادر هذا الحراك شارك السوافة بقوة، فساندوا إضراب 07أوت 1912م الذي استمر ثمانية أيام، وكان سببه منع السكان الأهليين من امتطاء القطار الذي ينقلهم إلى مدينة المتلوي وقدر عدد السوافة المشاركين فيه بـ120 من حوالي 1100 عامل، كما ساهم العمال السوافة في إضراب المتلوي في 03جوان 1929م للمطالبة برفع الأجور وتحسين الأوضاع، وقد استمر هذا الإضراب لمدة عشرة أيام. أما عن المشاركة الأبرز فكانت في إضراب الرديف سنة1930م الذي تزعمه العمال السوافة وهو احتجاج على حرمانهم من منحة المواظبة المخصصة للعمال التوانسة الذين لا يتغيبون عن العمل لأكثر من خمسة أيام في الشهر ، وقد استمر هذا الإضراب من 22 إلى 26أفريل من نفس السنة، وقد شمل الإضراب حوالي 1100 عامل من مجموع 1600[28].

ومع صعود الجبهة الشعبية إلى السلطة بفرنسا في شهر ماي 1936م،

فتح عهدا جديدا للعمال والحركة النقابية بتونس، فقد خرجت من الركود الذي كانت تعيشه وشرعت في إعادة بناء هياكلها وتنظيم التحركات العمالية من أجل جني مكاسب اجتماعية، دفعت هذه التطورات العديد من عمال المناجم إلى الانخراط بكثافة في الحركة النقابية حيث بلغ عدد المنخرطين في مدة وجيزة 3000عامل، والى تشكيل أولى المكاتب النقابية التي عرفت سيطرة العناصر الجزائرية السوفية والتونسيون على تركيبتها بمناجم الفوسفات، ففي مكتب الرديف الذي يضم خمسة(05) أعضاء نجد جزائريان سوفيان الأول عمر بن الهاشمي"سائق قاطرة" وهو يشغل منصب أمين المال، وأما الثاني فهو منصور السوفي"شاوش بالإدارة" يشغل منصب أمين مال مساعد. أما مكتب نقابة أم العرائس فيضم في عضويته ثلاثة(03) عمال جزائريين سوافة من أصل خمسة(05) هم أعضاء النقابة، فقد تقلد عبد المجيد بن الأخضر"سائق" منصب رئيس المكتب، وعبيطة بن الصادق كاتب عام مساعد، أما بشير الأسود أمين مال مساعد[29].

وما يمكن أن نخلص إليه من خلال هذه الدراسة أن طوال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر ظلت تونس من أولى البلدان التي يلوذ بها المهاجرون من وادي سوف، وهو ما ساهم في رفع مستوى العلاقات البينة بين المنطقتين، والتي امتازت بالاستمرارية حتى بعد فترة الاستقلال.

عاش المهاجرون السوافة وبقية إخوانهم الجزائريين والعرب حياة أقل ما يقول عنها بأنها مزرية في تلك القرى المنجمية، فالإقامة كانت في أحياء قصديرية منعزلة لا تتوفر على أبسط التجهيزات الضرورية للحياة العادية كالماء الصالح للشرب والكهرباء، والتجهيزات الصحية على الرغم من الدور الكبير الذي كانت تقوم به تلك اليد العاملة والمساهمة الفعالة في استخراج الثروة المنجمية، في ظروف مهنية صعبة فقد فيها الكثير حياتهم، أما عن الفوائد فقد كانت تذهب إلى تلك

الشركات الاحتكارية الاستعمارية تحرك بها عجلة الصناعة في دولة أخرى هي"فرنسا!".

الهوامش:

1- تقع وادي سوف في الجنوب الشرقي للقطر الجزائري، يحدها من الشمال: جبال الأوراس والنمامشة الممتدة على خط الزاب الشرقي- نقرين، ومن الشرق: الحدود الجزائرية التونسية، ومن الجنوب: الصحراء الليبية الجزائرية، ومن الغرب: واحات وادي ريغ، فهي إذا تقع في منطقة على شكل مثلث بين الأقطار الثلاث: الجزائر- تونس- ليبيا. ينظر،

- Ahmed Nadjah, **Le Souf des Oasis**, édition la livres, Alger, 1971, p10.

2- André Roger Voisin, **Le souf monographie**, édition EL Walid, El-oued, 2004, pp74-75.

3- فُرِضتْ الحماية الفرنسية على تونس بمقتضى معاهدة باردو في: 12ماي 1881م، للمزيد ينظر، علي المحجوبي، **انتصاب الحماية الفرنسية بتونس**، (تع) عمر بن ضو وآخرون، سراس للنشر، تونس، 1986، ص 60.

4- بيطري يعمل ضمن صفوف الجيش الفرنسي، أرسل في بعثة علمية منظمة من طرف وزارة التعليم العالي خاصة بالاستكشافات في الأراضي التونسية، تمكن من استكشاف الفوسفات بجبل قفصة في شهر أفريل 1885م، وعرض تقريره لأكاديمية العلوم في ديسمبر من نفس السنة. ينظر، محمد عمار شعابنية، **قصة الفوسفات في تونس1885-1910م**، دار سحر للنشر، تونس، 1996، ص ص12-20.

5-الهادي التيمومي، **انتفاضات الفلاّحين في تاريخ تونس المعاصر(مثال 1906)** ، منشورات بيت الحكمة، قرطاج- تونس، ص.74

6- فتحت الإدارة الاستعمارية باب الهجرة بالتنسيق مع شركات استغلال الفوسفات، ويروى أن الحاكم العسكري لملحقة الوادي وقتها، هو من اقترح على تلك الشركات تشغيل اليد العاملة السوفية، ينظر، عبد الحميد بسر، **صرخة الصمت "الشهيد القائد الطالب العربي قمودي، قائد منطقة الجنوب الشرقي والحدود"**، مطبعة مزوار، الوادي-الجزائر، 2014، ص ص107-108.

7- حفيظ طبابي، **الحركة النقابية بمناجم قفصة1936-1956**، شهادة التعمق في البحث، إشراف علي المحجوبي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، السنة الجامعية 1992-1993، ص .20

8- **نفس المرجع**، ص 21.

9- **Le migration dans la région minière du sud**", Revue Tunisienne de sciences sociales, 23 décembre 1970, p191.

10- للمزيد عن قبائل وادي سوف ينظر، إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**،(تع) الجيلاني العوامر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الدار التونسية للنشر والتوزيع،1977، ص ص269-271.

11- A.N.A, Boite 371, dossier, **rapport sur l'annexe d'El oued 1938**, p02.

12- Jean Pigoreau , **L'émigration dans l'Annexe d'El – Oued** (manuscrit), 1955, p02.

13- يوسف جفالي، **الجالية الجزائرية بجهة الكاف (1881-1929)**، رسالة الكفاءة في البحث، إشراف الكراي القسنطيني، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، السنة الجامعية 1992-1993، ص.33

14- Noureddine Dougui, **Monographie d'une grande entreprise coloniale**, **la compagnie des phosphates et du chemin de fer de gafsa (1897-1930)**, These de doctorat, faculté des sciences humaines et sociales de Tunis, 1991, pp 379-402.

15- حفيظ طبابي، **الحركة النقابية بمناجم قفصة**، ص ص28-38.

16- عثمان زقب، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في منطقة وادي سوف (1918-1947) وتأثيرها مع العلاقات مع تونس وليبيا**، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة باتنة، إشراف يوسف مناصرية، السنة الجامعية 2005-2006، ص.205

17- حسان الجيلالي، **قصة العودة(مذكرات عائد من الرديف تونس إلى وادي سوف الجزائر في صائفة الاستقلال)**، ج01، دار هومة، الجزائر، 2011، ص.38

18- Jamel Haggi, **Les Algériens originaires du sud dans la ville de Tunis pendant l'époque coloniale (1881-1956) (Mozabites**, **Souafas**, **uarglias)** mémoire de DEA, université de

Monouba, année universitaire, 2003-2004, p p19–20.

19- Noureddine Dougui, **op-cit**, p 68.

20- مبروكة رحيلي، **التحولات الاقتصادية والاجتماعية بالقرى المنجمية خلال الفترة الاستعمارية (مثال قرية الرديف بالجنوب التونسي 1939-1959)**، رسالة ختم الدروس الجامعية، كلية الآداب العلوم الإنسانية، جامعة صفاقس، إشراف عبد الواحد المكي، السنة الجامعية 2005-2006، ص ص 12 -23.

21- حفيظ طبابي، **القرى الاستعمارية"قرى مناجم قفصة نموذجا"**، المعهد الأعلى للحركة الوطنية، تونس، (د.ت)، ص148.

22- حفيظ طبابي، **الحركة النقابية بمناجم قفصة**، المرجع السابق، ص.80

23- Noureddine Dougui, **op-cit**, p292.

24- حفيظ طبابي، **الحركة النقابية بمناجم قفصة**، المرجع السابق، ص.70

25- حسان الجيلالي، **المرجع السابق**، ص.80

26- حفيظ طبابي، **الحركة النقابية بمناجم قفصة**، المرجع السابق، ص.74

27- الطاهر الحداد، **العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية**، الدار التونسية للنشر، تونس، 1972، ص .131

28- حفيظ طبابي، **الحركة النقابية بمناجم قفصة**، المرجع السابق، ص.87

29- **نفس المرجع**، ص ص133-134.